مملكة غرناطة

كما سبق أن رأينا، اختفى العرب من معظم الأندلس ولم يتبق غير ابن الاحمر على أنقاض عصر ملوك الطوائف الثانى وعصر الموحدين الآفل، وهكذا صار محمد بن الأحمر آخر ملوك الطوائف الصامدين أمام المد المسيحى وأول ملوك مملكة غرناطة الصغيرة التى ستبقى تحت حكم سلالته أكثر من ٢٥٠ عاما بقليل. والسؤال كيف استطاعت هذه المملكة الصغيرة البقاء كل هذه المدة وسط بحر من الأعداء؟ إن هذا السؤال امتداد لسؤال آخر سابق عليه : كيف بقيت الأندلس كلها ٨٠٠ عام، وكيف ظلت طوال هذه المدة فى حرب دفاعية مرات وهجومية بين الحين والآخر؟ بل كيف استمر الشمال المسيحى فى حرب ضد الأندلس المسلم ٨٠٠ عام، أى أطول حرب فى التاريخ؟ يجيب المرحوم عبد العزيز الأهوانى مؤسس الدراسات الأندلسية والشعبية فى حواراته الشفوية لتلامذته بأن المدد البشرى المستمر من كل من العالم المسيحى لشمال الأندلس المسيحى مقابل المدد البشرى المستمر من كل العالم الإسلامى لجنوب الأندلس العربى المسلم كان وقوداً لا تخمد ناره لتلك الحرب الطويلة بعامة. أما مملكة غرناطة فقد تلقت ذلك المدد البشرى من مصدرين : المصدر الأول من العرب المسلمين الذين بقوا فى المدن الأندلسية التى احتلها المسيحيون، وأطلق عليهم "المدجنون". لقد استمروا فى التمرد على سوء معاملتهم والخروج من مدنهم فى جماعات متوالية نحو غرناطة، بجانب أن سقوط القرى والمدن لم يتوقف، وكان معظمها فى ظل الحصار واليأس يسقط صُلْحاً، بشرط خروج الناس بأولادهم وأمتعتهم نحو غرناطة. وهكذا غصَّت غرناطة بسكانها المتميزين فهؤلاء المدجنون والمطرودون من مدنهم التى يتوالى سقوطها لم يكونوا يعرفون غير العمل والزراعة والدراسة والعلم وأيضا الرغبة فى الثأر لديارهم المنهوبة. فكان عملهم مثمرا، وتحولت المملكة الصغيرة إلى مملكة

مزدهرة غنية، كثرت بها الصناعات، وأقامت علاقات تجارية مع العالم المعروف لهم آنذاك، حتى أن شوارعها كانت مملوءة بالغرباء من تجار البلاد المختلفة، وبجانب قدرة هؤلاء على العمل والإبداع، تفوقوا أيضا فى الجهاد استجابة لحاجة البلاد، وتبريدا لنار غيظهم ممن نهب بلادهم.

أما المصدر الثانى للمدد البشرى، فكانت دولة بنى مرين القوية الفتية التى حلت محل الموحدين فى المغرب، فلم تتوقف هذه الدولة عن الجهاد والدفاع عن الأندلس. أيضاً كان هناك المتطوعون من الأفراد الذين يعبرون مضيق جبل طارق رغبةً فى المرابطة على الحدود مع العدو بأمل الاستشهاد دفاعا عن الإسلام وحق الوجود.

كان ذلك المدد البشرى ثنائى المصدر أحد أسباب بقاء غرناطة، أما الأسباب الأخرى فكثيرة منها براعة بنى الأحمر الدبلوماسية، وشراسة سكان غرناطة الجهادية، بجانب توفر المصدر الاقتصادى لتمويل الحرب. أيضا رغب المسيحيون فى بقاء غرناطة رمزا للتهديد ضد الممالك المسيحية، حتى تتوقف تلك الممالك عن الخلافات وتتحد معا، الأمر الذى حدث فى النهاية أمام إيقاظ الوعى المستمر بخطر الوجود الإسلامى، وأهمية بعث الروح الإسبانية، حتى تولد دولة إسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر لينتهى السبب الأكبر لتسامح الإسبان مع الوجود العربى فى بلادهم.

فى ظل هذا الجو عاشت غرناطة، شعب عامل ذكى اقتصاديا وعلميا، مقاتل مرتفع الروح المعنوية غير مهتم بغير العمل والجهاد تاركا أمور السياسة لقادته، وحكومة صالحة معظم الوقت، لولا تعكير هذا الجو الرومانسى تقريبا بالانقلابات الداخلية والدسائس بين أفراد الأسرة الحاكمة، وكان معظم ذلك يتم بتدبير من ملوك الإسبان، حيث استعان كل طرف بهم ضد الآخر، لكن هذه الخلافات لم تصل إلى حد تهديد وجود المملكة إلا فى الربع قرن الأخير من وجودها.

وفيما يتعلق بالأدب سوف نشير فى آخر الصفحات القادمة لخصائصه الأسلوبية، لكن أهم معالمه هو قيامه بدور رئيسى فى المحافظة على الهوية، بالتشبث بالذات العربية وخصائصها كما تبدّت فى الأدب العربى الكلاسيكى، مما يدفع تيار المعارضة والمحاكاة فى طريق إنتاج ما أطلق عليه الأندلسيون "القصيدة الميلادية" أى التى تولّد على نمطها عشرات القصائد، وكان هذا بصفة خاصة فى قصائد المديح النبوى، وقصائد الاستنجاد بحكام المسلمين لإنقاذ غرناطة من السقوط فى يد العدو، وانتهاء الإسلام بها.

وتعد القصائد الأخيرة ، استمراراً لرثاء المدن، وأيضا سوف تحاكى القصائد – رغم ميلها المحافظ – الموشحات، وسوف تحاكى الموشحات القصائد المحافظة، فى بحث مستمر عن روح أندلسية معاصرة، دون نسيان الحفر بحثا عن جذورها البعيدة. لكن كل ذلك سوف ينتهى عام ١٤٩٢م، لنردّد مع لسان الدين بن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس